

## نداء

شغف الأستاذ « عنتر المحلاوى » منذ فجر حياته بنزعة  
آثرها على غيرها من دوافع ورغاب ، ما فتئت على الرغم من  
اشتداد عوده ، وتكامل نمائه ، تعنف به وتلح عليه فى مثابرة  
وإصرار كأنما هى من نفسه شعلة دائمة التجدد موصولة لا اشتعال .  
لقد شب صاحبنا طلاعاً إلى الأسفار ، وإن لم يكن قدر له  
بعد ، أن يغترب عن موطنه الأصيل مسيرة يوم أو بعض يوم ،  
فهو ما زال يبنى النفس كسابق عهده دون أن يحقق فى الأسفار  
شيئاً من آماله الرحاب .

إنك إن تفقدت باطن وجدانه استبطنت ذلك الشعور  
الفوار ، وليد ما غرسه الأستاذ « عبد الغنى السبكى » فى نفسه  
الفتية من رغاب ، حين كان صاحبنا يتلقى عنه درس تقويم  
البلدان ، عصر الخميس من كل أسبوع ، فى مدرسة بالسيوفية  
لا يخطر الآن اسمها لى ببال .

كان الأستاذ « السبكى » فوق كونه أستاذاً للتاريخ ،

رجل فن وفكر ، أديباً ملهماً ، وفناناً ذكياً ، يميظ عن التاريخ  
 الغوامض والمعميات ، ويجلوه لك في ألواح أخاذة ، وكأن حوادثه  
 قطع الصلصال تشابكت بين أنامله ، يلينها ويشكلها ويصبها  
 في قوالب فنية مبدعة تفتتك من روعة وسمو وجلال .

وما ينساب صوته في الفصل يترسل على سمعك في غنته  
 الصافية ، حتى يبعث على مطرح وجدانك ، المدائن التاريخية  
 من سياتها العسيق تنفض عنها شملة التقادم والنسيان ، فإذا  
 الذى كان رفاتاً يصبح في طرفة عين كائناً حياً متكامل النضج ،  
 فلا تعم أن تتمثل لك الأطلال والدمن ، قصوراً يغمرها ضياء  
 وتعمها ضجة وحركة .

ولا يفوتك وأنت تستمع إليه ، أن تعاود العيش مع تلك  
 الحشود الجامعة ، تشرکہم الحياة بما حوته من حلو ومر ،  
 ولا يسعك إلا أن تحد السمع ، وأنت بحديثه موصول أنيس .  
 كذلك كان صاحبنا كلما ضممه الدرس ، فما تنقضى  
 الحصه ، حتى يؤوب إلى داره يحتبس في حجرته ، ثم يخرج  
 إلى المستشرف ، يتكىء بساعديه على حافته ، وقد تملكه سهوم  
 وهو يسترجع الدرس مع بواكير المساء وهدأة الليل ، وكأن على  
 عينيه منظاراً مكبراً يقرب له البعيد ويدنى ما يهفو إليه ، أو كأن

بأصبعه خاتم سليمان وإذا هو يلقي نفسه متربعاً على بساط  
الريح ، يسبح في أجواز الفضاء ، شرقاً وغرباً ، دون أن يعوقه  
في منطلقه زمان أو مكان .

فلا غرو إذن وقد أصبح صاحبنا رجلاً متكامل البناء ،  
صلب العود ، أن يتهافت على مصورات الجغرافية ومصنفات  
التاريخ قديمها وحديثها يجمعها إليه كي يروى ظمأه من مائها  
النمير ، غير مقتصد في مال وجهد وسعى .

إنه يعيش في الحياة فرداً لا رفيق له إلا تلك المجلدات التي  
تحتل من مغناه الرشيق حجرات ثلاثاً .

يستقبل صاحبنا ضحوة كل يوم ، غائصاً في أحشاء  
المكتبات ، يتخير وينتقى ، ناسياً نفسه ، مشغولاً بصفحات  
المجلدات كعاشق متيسم قد التحم والكتاب في غزل صامت وديع .  
وسرعان ما ذاع صيته بين أهل المكتبات فساروا ينحطون وداه  
ويتنافسون فيه .

ويوماً اتفق لصاحبنا أن قصد حي الحسين في جولة من  
جولات صيده اليومي ، فانخرط في شارع الممدود ، حيث  
تتزاحم على جانبه الشرقي المكتبات متراسة ، تبدى له كل منها  
حلاها وتسفر عن مفاتها وتدعه مقسم النظر بينها في حيرة واقتان .

وأقبل صاحبنا على واجهات الحوانيت يتسكع أمامها في تشوف وتعرف ، وأدت به خطاه الزاحفة ، إلى مكتبة الشيخ «أحمد المغربي» زعيم تجار الكتب لا في حي الحسين فحسب ، بل في مدينة المعز غير منازع ، فتوقف صاحبنا يجيل الطرف فيما حواه الخانوت من نوادر وألطف .

فلما لمح « الشيخ المغربي » مقبلاً عليه انقطع عن تسابيحہ واشرب بعنقه المكتنز ، وكأنها عنق ثور صدف عن علوفته يرأى بعينه ، وما عثم أن ثبت نظارته الصدئة المغبرة على أنفه ، وقد انبسطت أسارير وجهه في إشراقة ، وانفرج فمه عن بسمة ملق ، يهدى إلى صاحبنا التحية رافعاً يديه إلى عمامته يسوى طياتها وهو يقول في حماس :

أهلاً . . . أهلاً بالصدیق الحبيب . . . صباحك صباح  
الندی ولا ريب . . . والله يا أستاذ إنك ابن حلال . . . رزقك  
يسعى بين يديك . . . عندي اليوم لك بشرى وأى بشرى . . .  
درة فريدة لا يفضلك في اقتنائها آخر . . . حسبك أن تضيفها  
إلى دررك الغوالي . . . كتاب جامع عن الأندلس . . .  
موضوعك المفضل . . . تجد فيه شعراً عذباً ونثراً بليغاً . . . وتاريخاً  
عجيباً . . . وسيراً . . . وتراجم . . . وحتى السياسة لها شأن فيه

مرموق . . . خمسة عشر مجلداً . . . كل مجلد منها لؤلؤة نفيسة  
ما نظرتها عين من قبل .

وأخذ « الشيخ المغربي » ينشد جملة هذه وهو ينغم من صوته  
ويحد النظر في صاحبه ، يتوضح بعين التاجر الدرب ، وقع النبأ  
في نفسه ، فألقاه مشبوباً يستخفه الشوق ويهفو به الفضول .

على أن صاحبنا أخذ نفسه بالحزم ، وتماسك يقول مرسلًا  
ضحكة ناصلة ينشد بها ما يعتلج بين جنبيه :  
الأمر يا شيخ المغاربة يتوقف على الثمن .

واستدار الشيخ دون أن يريم مكانه يعبث بين كومات  
عقراء من الكتب تسامقت خلفه ، وهو يغمغم :  
الثمن أيسر مما تظن . . . انظر . . . تفرج . . . الوقت  
فيه متسع .

ومد يسراه إلى صاحبه يجزء من الكتاب الأندلسي المرموق ،  
يناوله ويمينه تضرب جلده ضربات خفافة أثارت حوله غلالة  
رقيقة من غبار ، وما لبث أن أخذه سعال ، فقال متحشرج  
الصوت محتمن العينين نافر الأوداج :

— هاك الدرة الثمينة . . . تصفحها . . . تجدني ولا غرو  
قد صدقتك القول فيما وصفت .

تناول صاحبنا الكتاب يقلبه في دقة وعناية ثم رفع رأسه  
يقول والكتاب متائب بين يديه :

ما ثمنه يا شيخ ؟

— ما تجود به أقبله . . . ليس بيننا مما كسة يا أخي .

— إن ابتغيت حقاً إتمام الصفقة فعلى بالكلمة الفاصلة .

وتشابك الرجلان في مماكسة عنيدة أطالت من وقفة

صاحبنا ، وأخرجت « الشيخ المغربي » عن وقاره وتحشمه ،

فخاض في حديث متشعب ، يستنكر ما عرض عليه من ثمن ،

مؤكداً قوله بالأيمان المغلظة أنه لو ارتضى إتمام البيع على هذا

الثن لكان ، وحق السماء ، مغبوناً جدم مغبون .

واشتد الضيق بصاحبه وأعلى الثمن على كره منه ينهى بلحاجة

الشيخ ويقطع حبل ثرثرته الحمقاء .

فجبهه « المغربي » بقوله ويدهاه بالكتاب مشغولتان تربطانه

كأنه طفل يهدده ويتلطف به :

صدق بالله . . . إنها صفقة لي خاسرة . . . لقد قبلت إعزازاً

لمنزلك عندى . . . لغيرك ما فرطت فيه ولو بذل لي ضعف ما قدرت .

فشكره صاحبه وهو يتسلم الكتاب بأجزائه الخمسة عشر ،

وانطلق بها فسيح الخطى يدف بجناحيه كالطائر وقد ظفر بصيده

يعجل به إلى عشه .

وتصرمت ليال .

وتوالت أيام .

وفجر يوم من أيام الصيف ، شوهد « عنتر المحلاوى » يبرز إلى المطار ، ويرتقى السلم إلى بطن الطائرة يأخذ مجلسه منشرح الصدر مشرق الحيا .

ودوت المحركات ، ودارت الطائرة دورة ، وثبت بعدها وثبة عالية رفعتها دفعة واحدة إلى أجواز الفضاء ، فانسابت في طيرانها ، تغالب الريح في جرأة وإصرار .

وانسرح صاحبنا في تفكير ، يتحين ساعة يلتحم وأرض الأندلس الحبيب في مصافحة جياشة ، ولقاء منشود .

كم من ليلة قضها مسهداً بصحبة الكتاب الأندلسى ، تختلج في نفسه شتى الأخيلة والأحاسيس .

شد ما تآقت نفسه إلى أن يستجلي ما هنالك من حضارة أينعت ، تتحدى أحداث الزمن وتصاريف الأيام .

ويدوى في الطائرة صوت القائد يبين للراكبين ، أن الطائرة تحلق الآن فوق الهدف المأمول .

ويضطرب صاحبنا في جلسته ، ويميل على طاق الطائرة يلتقى

بأنظاره في الفضاء، وكأنه أدلى بشص يتصيد به ضالته من أعماق الهواء.  
وتطالعه الأندلس في ثوب مفوف كغادة متأنقة تجتذبه من  
بهاء ورواء .

وتهبط الطائرة .

ويغادرها صاحبنا وثاب الخطى وكأنما هو نحلة ناشطة ،  
دائبة الحركة والدوران .

بيد أن غادة اليوم غير غادته الشرقية التي ألفها وأنس بها  
على مد الليالي وكر الأيام ، تسعده بسمرها الطلي ، وتشدو له  
شدوها الحنون .

ما للغادة اليوم تلوى لسانها ، تغمغم وتجمعم في رطانة  
سقيمة لم يألّفها لغة حديث بينهما من قبل ؟  
أين هي من ذلك اللسان المستقيم الذي طالما أسكره بعذوبة  
تعبيره وترنيمه أنغامه ؟

ما للغادة نضت عنها ثيابها الفضفاضة يحلبها وشى كوشى  
الربيع ، واكتست بديلاً عنها لبوساً أعجمياً ، وإن كان في  
مظهره القشيب ، ما فتيّ يحتفظ بفضيلة ناصلة من طراز شرقي  
رشيق ، فالمغاني تتوضح لناظره على امتداد الطريق متحشمة  
تستر خلف شملة من أسوار تحيط بها وتصونها كأنها أحراس

ينفذ منها هو فتحية حديقة حالية ، تتوسطها فوارة مرمرية  
 ينبجس منها الماء ، وقد تحلقت عليها الأشجار والورود ، مختلفة  
 الألوان والشكول ، وعلى جنبات الحديقة قبوات تهدي الخطى  
 إلى الحجر والحدور .

رباه ! أتكون الطائرة قد سخرت منه وغررت به فأصلته السبيل ؟  
 إن عينه حيرى بما تراه من آثار مطموسة المعالم حائلة  
 اللون لا تلام ما تمثله لها في كتابه من عظمة وجلال .

لم يكن يدور في خلده أن غادته التي صافته زمناً ستقدم له في  
 يومه كأساً غير التي نهل منها فأذكت روحه .

لقد غدت امرأة صلفة القلب ، جامدة الملامح ، وقد  
 تألبت على التراث الذى ورثته لم ترع إلاً ولا ذمة ، بل انبعثت  
 تركل وتبطش فى طيش جنونى وكأنها إعصار خراب وتدمير .

وقاده تنقله إلى قرطبة الخالدة حاضرة الأمويين ، ودره  
 تاجهم الأغر .

ماذا !! إنها ما برحت على عهدها ، تردد من صدر  
 مقرر ، أنفاس أمس الغارب ، كشيخ فان طحنته الأيام  
 وهدت عزمه العلل ، فأمسك عن المضى ، ينكمش على تراثه  
 يحافظ عليه ما أمكنه الحفاظ فى يأس وقنوط .

أيهرب من غادته ، ويقفل راجعاً إلى كتابه يحتفى عنده  
ويأنس به .

ولم تدم حيرته ، فقد حثه الدليل في زيارة إلى المسجد . . .  
مسجد قرطبة التليد .

هرع يطلبه وقد استبشر باللقاء .

دخله مشبوب النفس نشوان الفؤاد .

وما كاد يلتقى بالمحراب حتى ألفاه حبساً خلف نطاق من

سياج وقضبان ، يطالعه من وراء محبسه ، متطامن الهامة ، ذليل

القسمات ، على الرغم من طرائف النقوش التي تزين جبينه في

خطوط موشاة ، تارة تستقيم وأخرى تتشابك وتلتحم لتتنافر

وتشط دون أن تفقد وحدتها الفنية الرائعة .

إيه أيها المحراب . . . إن صمتك أنساني ما حملت من

تحيات وأشواق أنثرها في حضرتك آيات مودة وحب وإكبار .

لإنها من أخذان لك في قاهرة المعزّ ودت لو تم بينها وبينك

تلاق واجتماع على صعيد موحد . . .

لماذا لا تسعى إليها ، تشهدهم تلك البردة الموشاة التي

تسدل على منكبيك تتحلى بها في تألق وجهاء .

سوف يحتفون بك لا مريّة ، وسوف يطيب لك إن أنت

قررت الرحيل المكث والمقام .  
 أراك تختلج اختلاجة تألم وضيق واستنكار .  
 إني أراك ذليل الحال خلف السياج والقضبان .  
 أصبحت مجرد طرفة من طرف الفن تحجج الجموع الحاشدة  
 إليه مسلاة وملهاة ؟

فم صمتك بحق السماء ؟  
 ألم يبق فيك بقية من حمية الشباب ؟  
 تكلم . . . هداك الله ورعاك .

وهنا مزقت سكون التناجى ، رنات ناقوس ، تشابكت بها  
 ترنيمات أرغن ، تصاحبها ترتيلات وأناشيد ، فجمد صاحبنا في  
 وقفته ، وتملكته رعدة ، واضطربت شفثاه ، وغامت عيناه ،  
 وعلى حين بغتة ، انبثق صوته يدوى بتكبيرة الصلاة ، فتناثرت  
 الكلمات في رحاب المسجد قوية الجرس ، وكأنها مع صدى  
 صوته أصوات المصلين من أهل الأندلس في عصور سواف ،  
 بعثت من مراقدها تردد في إيقاع موحد : الله أكبر ، فما لبث  
 صوته أن تعاضم وتضخم ، وإذا هو يخر راكعاً يتشبث بالسياج  
 والقضبان الضاربة نطاقها حول المحراب ، يهزها في عنف ، وكأنه  
 يبغى أن يقتلعها ، يمهد للمحراب الحبيس سبيل تحرر وفكاك .